مخطوطات عصر ابن خلدون

أيمن فؤاد سيد(*)

كان القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، الذي عَاشَ فيه عبدالرحمن بن خلدون الشَّطَر الأعْظَم من حياته (٧٣٢-٨٠٨هـ/ ١٣٣٢-١٤٠٥م)، عَصْرًا غنيًّا بالإنتاج الفكري للعلماء المسلمين فمع تصدِّي المماليك للزحف المغولي وإيقافه في عَيْن جالوت بعد قضائه على الخلافة الإسلامية وإسقاطها في بغداد، وقيام دولة سلاطين المماليك باستضافة الخلافة العبَّاسية في مصر، تَحَوَّل الثِّقل السياسي والحضاري للعالم الإسلامي إلى مصر فانتقل إليها عَدَدٌ غير قليل من علماء الشرق الإسلامي ساعد على ازدهار مناخ علمي أنتج العديد من المؤلفات في فنون كثيرة.

وواقع الأمْر أن العَدَدَ الأكبر من المصَّنفات التي كتبت في هذا العَصْر كانت مؤلَّفات نقلية، والقليل منها يُمَثِّل أصَالةً في موضوعه يأتي على رأسها ((مُقَدِّمَة ابن خَلدون)).

واشتهر القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي بما أُلِّف فيه من ((مَوْسُوعَات)) بدايةً بمَوْسوعة ابن الوَطَواط الكُتُبي، المتوفى سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م، وانتهاءً بموسوعة القلقشندي، المتوفى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م، وتُعِدُّ هذه المُصَنَّفات خَيْر ما أنتجه هذا العَصْر.

فقد أسْفَر النشاط الهائل للعلماء المسلمين على مدى عدة قرون عن تأليف عَدَدٍ ضخم من الكُتُب في كلِّ حقول المعرفة، بحيث أن عُمْرَ العالم المختصر لم يكن يكفى لقراءة كل ما كتب في ميدانه، ناهيك عن دراسته. ومن هنا كانت الحاجة إلى طلب الكتب الموسوعية المختصرة، وقد عارض ابن خلدون في

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي . عالم في تحقيق التراث ونشره.

((مقدمته)) هذه الظاهرة واعتبرها دليلًا على التدهور الذي وصلت إليه الحياة العلمية في عصره.

وظهرت كل هذه الموسوعات في مصر، كتبها عُمَّالُ عصر سلاطين المماليك البحرية وعلماؤه بغَرض خدمة كُتَّاب الدَّواوين للاستفادة بها في مجال عملهم، ولكن واقع الأمر أنَّها أفادت جمهورًا أعظم من المُثَقَّفين لأنَّها عالجت مسائل أعمَّ وأكثر شمولًا في جميع فروع العلم التي يريد المؤلِّف أن يُعَرِّف بها.

والظاهرة الملفتة للنظر أنَّ مؤلِّفي هذه الموسوعات لم يروا في أنفسهم علماء بل كانوا في حقيقة الأمر كُتَّابًا نابهي الشأن في ديوان الإنشاء المملوكي واكتسبوا خبرةً كبيرةً في هذا المجال. وأدَّت وحدة الوسط الذي نشأت فيه هذه الموسوعات إلى تشابهها في الترتيب، وهو ترتيبٌ يعكس أحيانًا بوضوح تام أثر التدريب الصارم في الشئون الديوانية، ويبدو هذا واضحًا أكثر ما يكون في مؤلَّف القلقشندي ((صبح الأعشى)).

ويدخل في باب التأليف الموسوعي كذلك كتابُ تاريخ عامّ للعالم الإسلامي يعتمد على ما ورد في المصادر المبكرة والوسيطة مثلما فَعَلَ الذَّهَبِيّ في كتاب ((تاريخ الإسلام)) ومثلما فَعَلَ ابن خلدون نفسه في كتابه ((العِبَر وديوان المبتدأ والخَبَر)) الذي لم يكتف فقط بتناول التاريخ الإسلامي وإنما وَسَّع مجاله ليشمل تاريخ اليونان والرومان واليهود والفرس.

وجَاءَ كتاب ((الوافي بالوفيات)) لخليل بن أيبك الصفدي، المتوفى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م كأكبر كتاب تراجم عامّة في الحضارة الإسلامية استوعب فيه مؤلِّفه بتمكُّن تراجم مشاهير الرجال في السياسة والأدب والفقه والطب وسائر الفنون الذين عاشوا في الدولة الإسلامية حتى منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ويقع هذا الكتاب في ثلاثين جزءًا.

* * *

وأوّل موسوعات هذا العَصْر ((مباهج الفِكَر ومَنَاهِج العِبَر)) ألّفها جمال الدِّين محمد بن إبراهيم بن يحيى الكُتُبي الوَرّاق المعروف بالوَطْوَاط، المتوفى سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م. ولم يكن الوَطْوَاط من عُمّال الحكومة الذين مارسوا العَمَل في دواوينها، بل كان – كما يدلّ على ذلك لقبه – من المشتغلين بتجارة الكتب ونسخها يقول عنه الصفديّ : ((له معرفة بالكتب وقَيِّمها))، و((ملكت بخَطه تاريخ ابن الأثير المسمَّى بـ((الكامل)) وقد ناقَشَ المصنِّف في حواشيه وغلَّطه وواخذه)).

و((مَبَاهج الفِكَر)) موسوعة في العلوم الطبيعية والجغرافيا معروضة بأسلوبٍ أدَبيّ وموضَّحة بالشواهد من شعر ونَثْر وتنقسم إلى أربعة فنون : الفَلَك والأجرام السماوية، والجغرافيا والأجناس، والحيوان، والنبات.

وأهم فصول هذه الموسعة، الفن الثاني الذي خَصَّصه الوطواط للجغرافيا حيث أمَدَّنا فيه بمعلومات بالغة القيمة عن نظام الزراعة وجغرافية القطر المصري بصفة عامَّة.

ولعب كتاب ((مباهج الفِكَر)) دورًا كبيرًا في تطوير نَمَط التأليف الموسوعي، فقد نَقَل منه مرارًا معاصره النُّوَيْري واستعار منه طريقة التبويب إلى ((فنون)) محتفظًا أحيانًا بمحتويات الكتاب نفسها وخاصَّة في القسم الخاص بالنبات.

ولم يطبع هذا الكتاب إلى الآن، بل إن مخطوطاته المختلفة لا تحتوي إلّا على أجزاء متفرِّقة، وتوجد النسخة التامة الوحيدة من هذا الكتاب في المكتبة المارونية بحلب ومنها نسخة مصورة في دار الكتب المصرية برقم ٣٥٩ طبيعة وأخرى منسوخة عنها برقم ٣٢٣ف، كما تحتفظ الدار بأجزاء متفرقة من الكتاب تحت رقمى ٣٢٤و ٤٢٠ طبيعة.

ويُوجد الفن الأول والفن الثاني من الكتاب في نسخة قديمة كتبت سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٧م، في المكتبة التيمورية الملحقة بدار الكتب المصرية، إضافة إلى قطع أخرى متفرقة في إستانبول في مكتبات بايزيد وقسطموني وحكيم أوغلي وآق سكي.

وللكتاب مختصرٌ عنوانه ((نزهة العيون في أربعة فنون)) منه نسخة في مكتبة أحمد الثالث بإستانبول برقم ٢٦١٠ كتبها منصور بن محمد العبادي سنة ٩٨٧هـ، ولا ندري إن كان هو نفسه المختصر، فالعنوان خلا من اسم مؤلِّفه.

والمَوْسوعة الثانية هي ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب البكري النُّوَيْري، المتوفى سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م، ويُعَدُّ النُّوَيْري خير ممثل للوَسَط الذي عملت فيه ومن أجله موسوعات عصر المماليك.

واستعار النويري من سلفه الوطواط تقسيم كتابه إلى أربعة فنون، وأضاف إليها فَنًّا خامسًا هو ((التَّأريخ)) وعَدَّل كثيرًا في مادَّة الفَنّ الثَّاني الخاص بالجغرافيا كما جاءت عند الوطواط.

واستغرق تأليف هذه الموسوعة نحو عشرين عامًا وجاءت في واحد وثلاثين جزءًا كبيرًا. ويعد القسم التاريخي فيها أكثر أقسامها قيمةً سواء بالنسبة للفترة التي عاصرها النويري أو للفترات السابقة فقد نَقَلَ النويري نصوصًا كاملة عن مؤلِّفين لم تصل إلينا مؤلفاتهم فحفظ لنا بذلك معلومات ما كان يمكننا الاطلاع عليها لو لم يدوِّنها النويري. وحقيقة الأمر أنَّ هذه قيمة كبيرةٌ لمؤلفات عصر سلاطين المماليك، والتاريخية منها على وجه الخصوص، حيث حفظ لنا مؤرِّخون من أمثال ابن أيبك الدواداري وابن الفُرَات والمقريزي وأبو المحاسن بن تغري بردي نصوصًا كاملة من مؤلَّفات ضاعت عَنَّا أصولها اليوم.

وبفضل جهود أحمد زكي باشا (١٨٦٧ – ١٩٣٤م) اقتنت دار الكتب المصرية نسخة كاملة، ولكنها مُلَفَّقة، من نهاية الأرب أصلها محفوظ في تركيا، وشَرَعت في نَشْر أجزائها وصَدَرَت تباعًا في ثلاثة وثلاثين جزءًا بين سنتي ١٩٢٣ – ١٩٩٨م!

أما أهم ما أنتجه عصر سلاطين المماليك فموسوعة ((ممالك الأبصار في ممالك الأمصار)) لشهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العُمَريّ، المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م، ووصفها الصفدي – معاصر العُمَريّ – بأنَّها ((كتابٌ حافل ما يعلم أن لأحدٍ مثله)).

وقسم العمري كِتابه إلى قسمين كبيرين جعل أحدهما : ((في ذكر الأرض وما اشتملت عليه بَرًّا وبحرًا))، والثاني : ((في سكان الأرض من طوائف الأمم)). وكل من القسمين ينقسم بدوره إلى أقسام أطلق عليها العُمَرِيّ اصطلاحًا ((النَّوْع)).

ورغم أنَّ مادة موسوعة العُمَريّ تقتصر على الجغرافيا والتاريخ فقط، بعكس موسوعتي الوطواط والنويريّ اللتين عالجتا فنونا أخرى غير الجغرافيا والتَّاريخ، فإن ثقافة العمري تبدو أكثر وضوحًا في موسوعته وفي كتابه الآخر ((التَّعْريف بالمُصْطَلَح الشَّريف)) عن الوطواط والنويريّ اللذين يمثل مؤلَّفاهما مؤلَّفين نقليين بمعنى الكلمة. فمُصَنَّفا العمري ((المسالك)) و((التعريف)) يعدّان من أهم آثار عهده واعتمد عليها كثيرًا مؤرخو عصر المماليك المتأخرين، فيما يخصّ نظم دولة سلاطين المماليك ورسومها، كما يبدو واضحًا في مؤلَّفات القلقشندي والمقريزي وابن شاهين الظاهري والسيوطي.

وكتاب ((مسالك الأبصار)) للعُمَري مصدرٌ من الدرجة الأولى لدراسة عصر سلاطين المماليك البحرية وعلى الأخص المعلومات التي يوردها عن البلاد التي ربطتها صلاتٌ دبلوماسية منتظمة أو متقطِّعة بدولة المماليك. فقد هيَّأ

له عملُه الحكومي، ككاتب في ديوان الإنشاء، الاطلاع على الوثائق ولقاء كثير من المسئولين والسُّفراء، كما أن مصادر أخباره ومعلوماته متعددة للغاية مما مكَّنه من إخراج لوحة مُفَصَّلَة في وصف العالم المعاصر له.

ونُسَخُ هذا الكتاب التي وَصلَت إلينا ليست كثيرة ويوجد قسمها الأكبر في مكتبات تركيا في مكتبة آياصوفيا ومكتبة أحمد الثالث بإستانبول إضافةً إلى مكتبتي لاله لي وروان كُشُك، كما توجد نسخ لأقسام من الكتاب في باريس ولندن وأكسفورد والإسكوريال ومكتبة القرويين بفاس، وتمتلك دار الكتب المصرية نُسْخَه مصورة بالفوتوستات عن نسختي آياصوفيا وأحمد الثالث بإستانبول أهداها إليها العلامة الراحل أحمد زكي باشا الذي بدأ مشروعًا لإخراج الكتاب في دار الكتب أصدر منه فقط الجزء الأول سنة ١٩٢٤م.

وألَّف شهابُ الدين أبو العباس أحمد بن علي الفزاري القلقشندي، المتوفى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م، آخر موسوعة كبرى لعصر سلاطين المماليك. وكما يتضح من عنوانها ((صُبْح الأعْشَى في صناعة الإنْشَا)) فإن موضوعها الرئيسي هو الكتابة الديوانية. وبدأ القلقشندي تصنيف هذا الكتاب الضخم فور التحاقه بالعمل بديوان الإناي في مصر سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م وانتهى من تأليفه في شوال سنة ٨١٤هـ/١٤١٢م.

وتنقسم هذه الموسوعة إلى مقدمة وعشر مقالات عالج فيها المؤلف كل ما يتعلَّق بالكتابة والخط وآلاته والمكاتبات وصيغها والنظام الإداري لمصر في العصر الإسلامي وأورد صورًا للوثائق الصادرة من ديوان الإنشاء عن السلاطين والأمراء إلى غير ذلك من موضوعات مهمة تجعل من الكتاب مصدرًا أساسيًا فيما يتعلق بالتاريخ والإدارة والحياة الاجتماعية للعالم الإسلامي والأقطار المتصلة به طوال أربعة قرون من القرن الخامس حتى مطلع القرن التاسع للهجرة.

وكان نصيب موسوعة القلقشندي من الاهتمام أوفر حالاً وأحسن من موسوعات عصر سلاطين المماليك الأخرى. فبفضل جهود أحمد زكي باشا أيضًا الذي وَفَّرَ نُسْخَةً كاملة منها لدار الكتب المصرية أخرجت لنا في باكورة منشوراتها نَشْرَةً مضبوطَةً صحيحةً لكتاب ((صُبْح الأعْشَى)) صدرت في مطلع القرن العشرين، مما أتاح للعلماء فرصة التوفّر على دراستها والاستفادة منها.

* * *

وكان وصول ابن خلدون إلى مصر مع تحوّل القوى السياسية بها من المماليك التركية أو البحرية إلى المماليك الشراكسة أو البرجية. حيث أمضى الربع قرن الأخير من حياته (٧٨٤ – ٨٠٨هـ) في كنف السلطان الظاهر برقوق وابنه الناصر فرج، وأهدى إلى الظاهر برقوق الإخراج الثاني من ((المقدمة والتاريخ))، وهي النسخة المعروفة بالظاهرية.

وفي الوقت نفسه التفَّ حول ابن خلدون العديدُ من المصريين النابهين الذين تأثروا بمدرسته في الكتابة التاريخية وتفسيره لأحداث التاريخ، يأتي على رأسهم شيخ مؤرخي مصر الإسلامية تقيّ الدين أحمد بن علي المقريزي (٧٦٦-٨٤٥هـ/ ١٣٦٥-١٤٤٢م) الذي ألَّف العديد من المؤلفات التي تناولت تاريخ مصر الإسلامية منذ الفتح الإسلامي وحتى منتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي مثل ((عقد جواهر الأسفاط)) و((اتعاظ الحنفا)) و((السُّلوك)) و((المقفى الكبير))، ولكن الكتاب الذي كفل له شهرةً كبيرة هو دون شك كتابه الموسوعي ((المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار)) المعروف باسم ((الخِطَط)) الذي يُعَدّ أهم كتاب في تاريخ مصر وجغرافيتها وطبوغرافية عاصمتها في العصر الإسلامي، فهو الكتاب الوحيد الذي وَصَلَ إلينا ويقدِّم لنا – اعتمادًا على المصادر الأصلية – عرضًا شاملاً لتاريخ مصر الإسلامية ولتأسيس عواصم مصر ونُمُوّها منذ الفتح الإسلامي وحتى القرن

التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، ويُعَدّ بذلك مصدرًا لا غنى عنه للمشتغلين بدراسة آثار مصر الإسلامية من قصور وجوامع ومدارس وخوانق إضافة إلى حَارَات وأخْطاط ودروب عاصميتها القاهرة والفسطاط.

ووصلت إلينا العديد من نسخ هذا الكتاب المهم وبعضها مسودات بخط المقريزي نفسه محفوظة في متحف طوب قبوسراي بإستانبول، وأخرى منقولة مباشرة عن خط المؤلف محفوظة كذلك في مكتبات الفاتح وآياصوفيا بإستانبول، تَوَفَّر على جَمْعها ومقارنتها كاتب هذه السطور وأصْدَرَ نَشْرَةً نقديةً لهذا الكتاب المهم بين سنتي ٢٠٠١ و٢٠٠٥ صدرت في لندن.

* * *

وهكذا فقد وَجَد ابنُ خلدون نفسه في بيئة تموج بالإنتاج الفكري، وكان انتقاله من شمال إفريقيا بعد أنْ عاش في بلاط ملوكها وكتب النسخة الأولى من ((مقدمته)) و((كتابه في التاريخ))، إلى مصر في زمن المماليك التي أنتجت هذه المؤلَّفات الموسوعية دافعًا له لإعادَة كتابة مقدمته وتاريخه ((العِبَر)) بعد أن اطَّلع في خزائن كتبها على العديد من المصادر التي لم تتح له في تونس والمغرب وعاشر علمائها وكتّابه وتقرب من ملوكها وسلاطينها، وأثَّر في كثير من مؤلفيها وعلمائها بفكره ونظرته المبتكرة التي عَبَّر عنها في مقدمته الشهيرة.